

سنغافورة

فتحت عيني على ضوء النهار يتسرب خلال زجاج النافذة واستارة
البيضاء الخفيفة . لذيذ هذا الشعور بالدفء ، بالصوف الناعم الذي
يحتويني ، والمربة اللينة لطيفة تحت جسدي . الحجرة ليست واسعة
ولا ضيقة ، جدرانها مضيئة بنون أزرق خفيف فضي ، والأثاث يقف
بأرجله الرشيق فوق البساط السميك . هنا تشعر أنك معزول تماماً عن
العالم الخارجي ، تسرق السمع فلا يصل إليك سوى صوت السكون التام .
ضغطت على الزر الأبيض بجوار السرير فانسابت أنغام الموسيقى تنبض
كالיום لوليد بإيقاعها المرح .

قررت أن أبقى مستلقياً أستمتع بالحيظات من الرفاهية الطارئة ،
ولكن بعد قليل أحسست بالقلق يزحف علي بالتدريج . لماذا هذا الشعور
بالإثم ينتابني كلما عشت حياة الرفاهية ، ولو لبضعة أيام . جاهدت
طويلاً لأتخلص منه بدون جدوى . قفزت من السرير واتجهت إلى الحمام
طلعتني مساحات التمشاني الناصع البياض ، والنسيمنساء الزرقاء ،
وصابير الكروم اللامعة ، وشمنت رائحة الصابون المعطر ، والنوط
النظيفة . خلعت ملابسى وتركت نفسى تحت سيل المياه الدافئة تغسل
عرق السفر ، وترابه ، والتساؤلات التى تحملها النفس معها فى كل
مكان .

كانت الساعة تدق الثامنة عندما دخلت المطعم البرتقالى اللون ،
بموائده اندائرية ، تحتل مساحة واسعة فى بدروم فندق « الأكواتوريال » .
جاءتني مهمة الأحاديث المتصلة وأنا أحسنى فنجان القهوة الساخنة ،
وأحس بتيار اليقظة والتنبيه يسرى إلى عقلى مع كل رشفة ، مثل شحنات
صغيرة منعشة من الكهرباء .



سنغافورة : الاثنين ذو العيدين الحمراء وين بحرس الميناء

الأميرة التي تجلس في جوارى من مائلا . كما أدركت من الحديث .
 الأب يوتدي قيصاً مزخرفاً ياتيك وينبعث دخان سيجارته السميكة .
 وهو يميل في انوراء كآلة راض عن دنيا وعن نفسه . انام ونصبي وانفتاة
 يرثرون بالإنجليزية . ينصقونها بتدث لغفات الآسيوية المستوطنة التي
 تم عن محاوثة لتقليد الأمريكان . تبدو عنده علامات ثراء من ملابسهم
 الأنيقة . ومن تلك الطريقة في التصرف التي تشعرني بشبه تعودوا الرقادية .
 وأن لا شيء يقنع بأخر .

كنت أضيف دائماً بالذين يصرون على التحدث بلغة أجنبية .
 وهي ظاهرة لا تجدها إلا بين فئات محدودة في مصر . ولكن هنا . في
 هذه المنطقة من العالم . الجميع يتحدثون بالإنجليزية . كآلة شيء عادي
 تشعر معه ببصوات العرب ثقباء على الحياة الثقافية والتذكيرية . وينوع
 من الطمس للشخصية الوضعية يترك أثر أعميقاً على فئات واسعة من الناس .
 فاللغة الإنجليزية هي اللغة الرسمية تستعمل في الصحافة والنشر ، والإذاعة
 وجميع المراسلات الحكومية أو التجارية . سواء في تايلاند . أو سنغافورة
 أو ماليزيا .

كان الفندق مزدحماً بعدد كبير من الأمريكان والإنجليز ،
 تقابلهم في كل خطوة : في المصعد في أثناء الصعود والهبوط . وفي الهواء
 العريض ينثرون أجسادهم الطويلة في المقاعد الجلدية السوداء ويلقون
 بنظراتهم المتعالية على الداخلين والخارجين . وعند المدخل . يستعدون
 لرحلة اليوم الجديد . أو يستقلون السيارات الفارعة الالامعة تنطلق عبر
 الشوارع ، أو في حمام السباحة يعرضون بشرتهم البيضاء للشمس عسى
 أن يصيبها شيء من السمرة .

وعندما تنتقل في كل من بانجكوك وكوالا لامبور وسنغافورة يمكنك أن
 تلمس عن قرب لماذا يتشبه الأمريكيون والإنجليز بهذه البلاد ، ويبدلون
 كل مجهود ممكن لتأجيل يوم الرحيل . فهنا تدرك المعنى الحقيقي للثراء .

الشوارع العريضة ، والحدائق التي تمتد بزهورها على مساحات شاسعة ،
ومنازل كالتصور تظل من داخلها الأضواء الخافتة ، وأشباح الرياش
والتحف ، والغابات الكثيفة ، والنواكه ، والزهور الثمينة ، والمعادن ،
والمطاط يسيل كاللعاب الأبيض فوق الجنوع السمراء ، والطبيعة الساخنة
السخية . والنيل يلمع فيها أبهاء الفنادق تبدو كقصة ألف ليلة وليلة ،
والجواهر تلمع عند الأصابع ، وفوق الشعر الأسمر الطويل ، وهمسات
النساء ، والضحكات الناعمة المريحة ، والسيارات تنساب فوق الأرض
كالزوارق ، أو تقف أمام بيوت الليل غارقة في الوهج الأحمر حتى
التحجر .

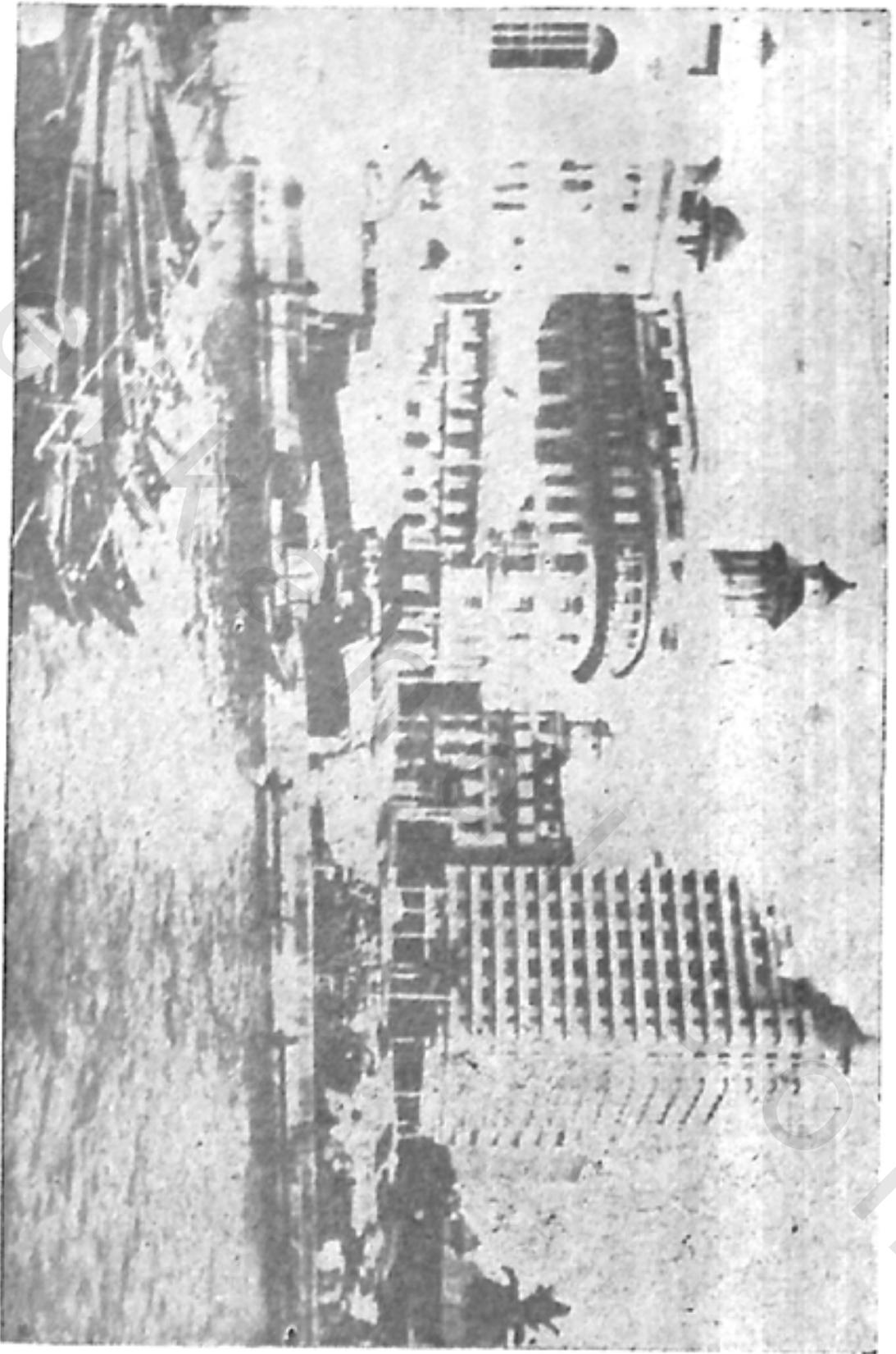
هنا يحيا أسياد العالم ، ملوك المال ، يمارسون المتعة إلى مستوى يفوق
الخيال .

وسنغافورة ميناء ضخمة ، ممتلئة خطوط التجارة في الشرق ، منطقة
حرة يسكنها خمسة ملايين من البشر .

وفي مدينة سنغافورة إلى جانب الأسياد الأجانب الذين يملأون الفنادق
ويستقون بين أرجائها في سياراتهم الفاخرة ، ويحملون حقائب « السمسونايت »
في رحلاتهم بين عواصم العالم ، توجد جاليات أخرى لها دور في التيار
التجاري الضخم الذي يمر عبرها .

لم أكن قد رأيت الصينيين من قبل ، وعندما خرجت من الفندق في
ذلك الصباح الغائم الحار ، لم أكن أتصور أنني سأكتشف أشياء جديدة
على تماماً ، برغم كل ما قرأته وسمعت عن الصين الشعبية ، وعن
شعبها .

أمام محطة الأتوبيس ، وقف الناس ينتظرون . كان الزحام شديداً .
فالوقت وقت الذهاب إلى العمل ، والمدارس مفتوحة في فصل الصيف ،
ولكن عندما توقف الأتوبيس الضخم فجأة في المكان الذي كنا نقف
فيه تماماً ، تحرك الطابور الطويل في سرعة هائلة ليصعد السلم . لم يحاول



سنافورة : الحى التجارى حول الميناء ، والعمارات المشاهقة

أحد أن يندفع قبل غيره ، ولم أشعر بأحد يدفعني من الخلف : أو يسحق أصابع قدمي تحت حذائه . أو يضرب مرفقي المديب في ضلوعي . وقمت خلف السائق أتصاع إلى الشعاع العريض الممتد أمامي أتابع السباق المنظم بين السيارات المسرعة . طابت من الكمساري أن أنزل في شنتون واي ، كانت المسافة طويلة . ومررت أكثر من نصف ساعة بدون أن يلتفت إلى فضنت أنه نسي . وأني سأضل الطريق . ولكن بعد قليل اقترب مني وقال :

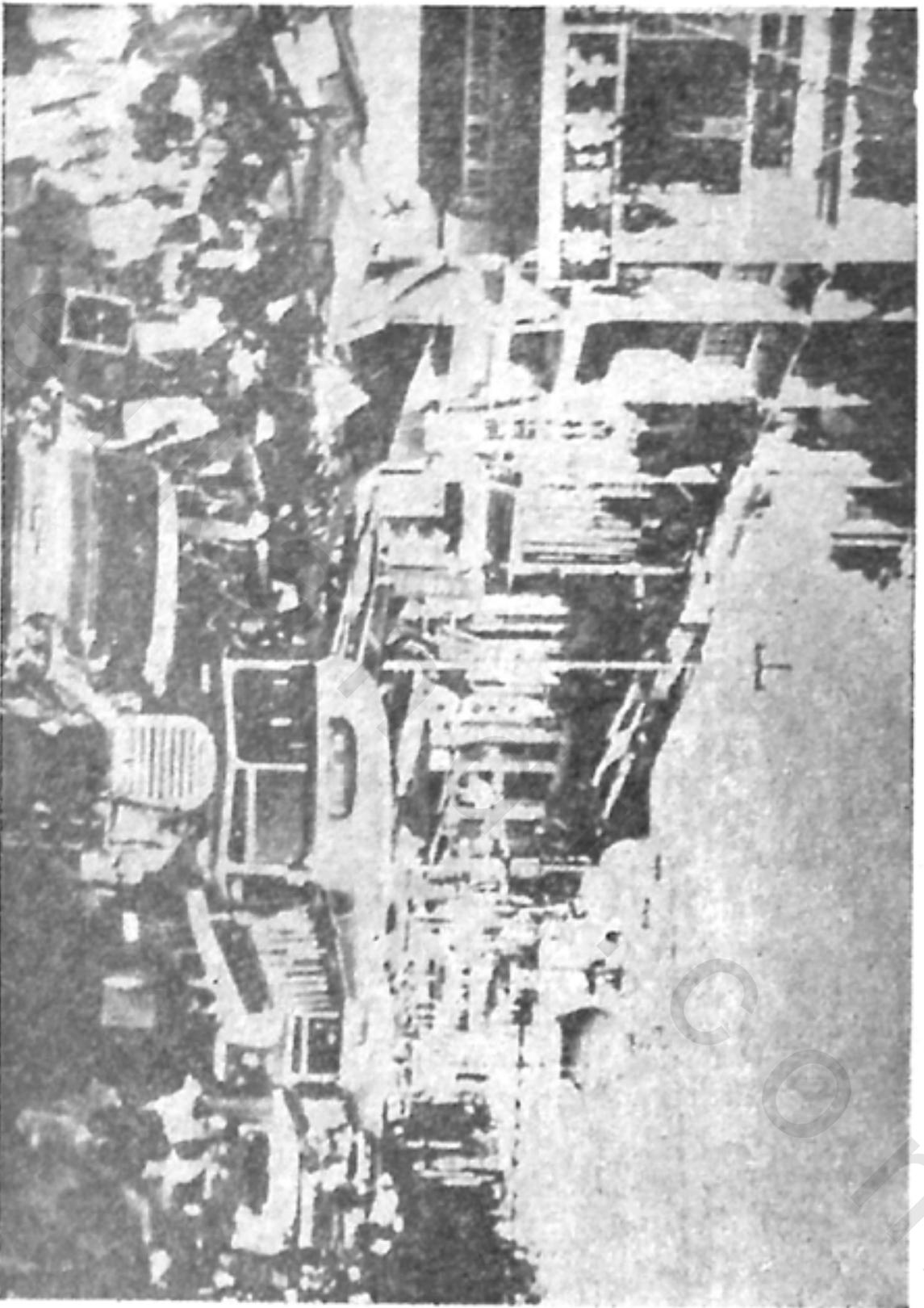
« شنتون واي . . . المحطة القادمة » . ثم ضغط على زر أحمر ليفتح الباب . ووجدت نفسي في الشارع أدور بعيني على المباني البيضاء ومساحات الحشيش والأشجار ، ترتفع وسطها نافورات المياه ، وتماثيل من الرخام الأبيض . عبرت قنطرة طويلة ضيقة للمشاة لأجد نفسي أمام الميناء . المياه الممتدة حتى الأفق رمادية زرقاء . والبواخر راسية في هدوء بمداحها الصامتة تنتقل بينها القوارب الصغيرة في حركة دائبة مثل خلية النحل .

الذين يسمونهم « الخطر الأصغر » !

المنطقة المحيطة بالميناء تعتبر من أكبر الأحياء التجارية ترتفع المباني الشاهقة حولها في نصف دائرة تفصل بينها عشرات الممرات . وعبر هذه الممرات يمر الناس في سبيل لا يتقطع . جاءوا من كل بلاد العالم إلى هذه البقعة . يبحثون عن ذلك الشرق الغامض الذي يثير الخيال .

دلفت إلى أحد الممرات . طريق ضيق للغاية على جانبيه حوائط صغيرة . أو مجرد رفوف خشبية تكومت فوقها تلال من البضاعة ، آلاف الأصناف وآلاف الألوان ، ومئات من الناس ، لمحت مقهى صغيراً في منتصف الممر . حجرة بها عدد من المواقد ، والمقاعد الخشبية ، فدخلت وجلست .

obeykandl.com



سنافورة : الحروف الصينية والزحام وأكشاك الباعة

obeykandl.com

وعندما تصطب مشروباً تفتح الزجاجاة وتوضع أمامك في سطح البصر ومعها شفاطة من البلاستيك الأبيض . وعلى كل مائدة ، طفاية . سجائر صغيرة بها كبريت وشفاطة . وانكان خال من الذباب تماماً . فبين الحين والحين يقوم أحد العاملين برش سائل مبيد من رشاشة صغيرة تعلق إذا ما معضراً في الجو .

واخل يتدع إلى جانب المشروبات أنواعاً أخرى من المثلجات . الأيسكريم اللذيذ تكتشف معه أن كل ما أكلته من قبل لم يكن «أيسكريمًا» و « الشندو » يوضع في أطباق خاصة . صغيرة الحجم تشبه الفنجان المسطح معه ملعقة لها يد قصيرة . وهو عبارة عن لبن . وجوز هند مع التاج المشور . وفواكه جافة في شكل مربعات جيلاتينية ماونة . وأعشاب بحرية مسكرة في شكل خيوط حمراء وخضراء قوامها يشبه الجيلاتين أيضاً .

وعندما يأتي وقت الحساب . برغم الزحام الشديد ، وبرغم هذا العدد الهائل من الناس الذين يدخلون المكان ويغادرونه . وبرغم جلوس الناس مختلطين حول الموائد . تكتشف أن الرجل النحيف الهادئ الذي يقف أمامك لا يحاول أن يتذكر الحساب ، إنه يترك المسألة لك تماماً يكتبي بسؤالك عن المشروب الذي طلبته ، وعن عدد قطع الكعك أو الفطائر التي أخذتها من الطبق الموضوع فوق المائدة . ولكن في الوقت نفسه يجيئك إحساس غريب بأنه يعرف تماماً حساب كل واحد من الذين يجلسون في المحل . وأنه قادر على تصحيح أي خطأ بذلك الأدب الجم الذي يقابلك به الناس في كل مكان .

هكذا هم الصينيون . أو على الأقل الصينيون الذين يعيشون كأقليات في مختلف البلدان التي زرتها في أثناء رحلتي الآسيوية . قدرة على العمل المستمر تبدو أنها بغير حدود ، دقة ، وهدوء ، وصبر مدهش . أمانة



سنغافورة : رقصة التنين في الشوارع تؤدى في مناسبات خاصة

لا يتطرق إليها الشك . فإذا قال لك نصيبى إن ثمن الساعة كذا يمكنك أن تطمئن إلى صدق قوله . أدب . ورقة في التعامل مع الآخرين . انسجام طبيعى مع الأسلوب المنظر في الحياة . وفي العمل . وميقن إلى أن يضى على الأشياء الخبيثة به قدر كبيراً من النظافة والجمال .

لقد أطلق الاستعمار على شعب الصين لفظ : الخضر الأخضر لعشرات السنين . وكان الغرض هو تخويف بقية العالم من تقدم الصين . وتعبئة اليهود ضدّها . وكان الغرض أيضاً التفرقة بين الشعوب على أساس اللون وإثارة نزعات التفرقة العنصرية . ولكنى عندما رأيت صفات الشعب الصينى وقدراته . أدركت سبب الذعر الذى أصاب المستعمرين الأجانب في مواجهة اليهود التى يبذلها هذا الشعب للقضاء على ميراث التخلف . فهذه الصفات والقدرات تنبئ بمعجزات تستطيع الجماهير الصينية أن تحققها وتفسر إلى حد كبير ما يصل إلينا عن نجاحهم في مجالات مختلفة اقتصادية . وصحية . وتعليمية . وإلى جانب دور الحزب الشيوعى : والتنظيمات السياسية ، والمثل الذى تضربه الرعادات السياسية : توجد هذه الصفات الأصيلة للشعب الصينى .

عندما يخرج الإنسان من حدود بلاده إلى العالم الرحب الواسع تفتح أمامه آفاق وحقائق جديدة وتنبخر كثير من الأفكار المسبقة ، والآراء الجاهلة ، ويدرك أن قضية التطور الإنسانى معقدة . ذلك أن كل شعب ذات تاريخ طويل ، ومعارك طويلة ، وتطورات معقدة دخلت في تكوينه وبدون معرفة دقيقة لكن ذلك لا يمكن قيادة الشعب في طريق التقدم .

وأعترف أن الإعجاب الذى أحسست به إزاء الصينيين ، صاحبه تساؤل حول أشياء تذكرتها في بلادى . فالحضارة المصرية شأنها شأن الحضارة الصينية عريقة ، أصيلة ، تضرب بخمور عميقة في التاريخ . ومع ذلك بدا لى أن التطور في بلادنا مشكلة أكثر تعقداً ، وأن الطريق أمامها ليس مههداً بالتدريج نفسه . الصين مثلنا كانت هدفاً للغزو الاستعمارى ، ولكن حجم

لبئاد ، ومساحتها ، وضخامة عدد سكانها جعلتها مجتمعاً مغلقاً إلى حد كبير . ومجتمعاً يصعب السيطرة عليه . وهذا الانغلاق ربما أفاد في بعض النواحي . فقد سمح بالتحفاظ على تراث . وعلى صفات أصيلة موروثية من الماضي الطويل . سمح بالتحفاظ على نوع من الانسجام الاجتماعي ، على الروابط ، على علاقات يمكن أن تكون أساساً لتطوير جديد . ربما لمس ماوتسي تونج جزءاً من الحقيقة عندما قال : « إن الشعب الصيني مثل الصفحة البيضاء يمكن أن ترسم عليه أجمل الألوان » . لشعب الصيني ، شأنه شأن كل الشعوب ، لم يكن صفحة بيضاء ، ولكنه كان صفحة احتفظت بكثير من نقائها : صفحة أمكن وقايتها من بعض عوامل الإفساد ، صفحة يمكن إعادة صياغتها بقدر أكبر من السهولة .

أما مصر فأوضاعها اختلفت في كثير من النواحي . السكان محصورون في الشريط الضيق لوادي النيل . والزراعة تعتمد على الري . والري يعتمد على إيجاد سياسة مركزية قوية تنظمه . ولذلك اتبع المصريون منذ آلاف السنين نظام الحكومة المركزية للسيطرة بسهولة على المساحات المحدودة حيث يتركز السكان .

وموقع مصر يقع في سرة العالم ، تتدفق إليها التيارات من الشرق والغرب ، وتمر عبرها تجارة العالم وأفكاره . استهدفت لغزوات لم تنقطع من الفكسوس ، والتمرس ، والديونانيين والرومان . والتت والغرب والصلبيين ، والأتراك ، والمماليك ، والفرنسيين ، والإنجليز .

مصر مجتمع مفتوح ، ليس بالمعنى الذي يقصده بعض المتكلمين من الغرب ، ولكن بالمعنى المضاد للمجتمع المغلق . وهذا التفتح الذي يقصد المفكر الغربي ، يفتت في البنيان الاجتماعي ، ويضعف الروابط ، وينشر التفكك ، والتنوع ، ويقوى الاتجاهات الفردية ، وعدم الرغبة

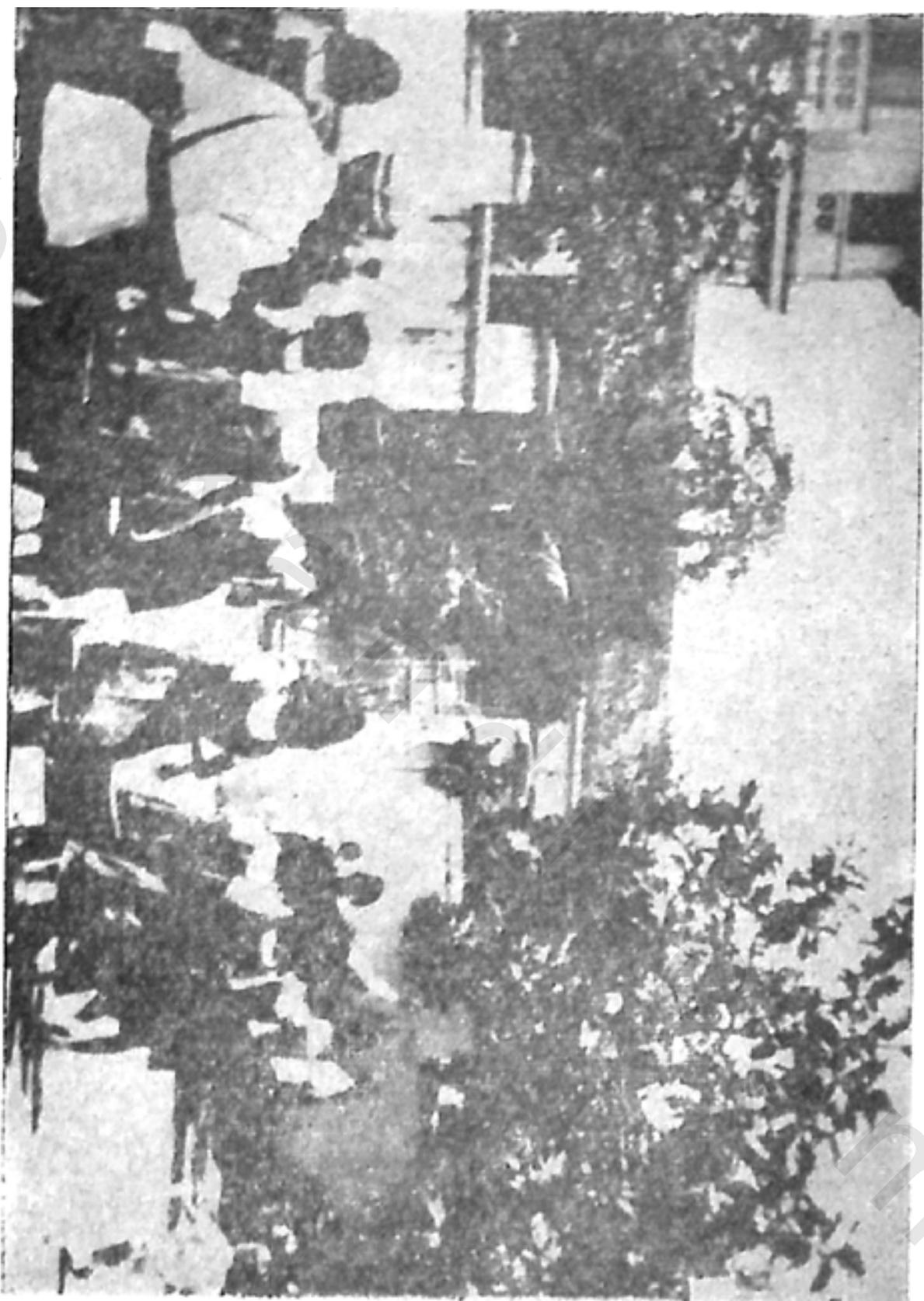
في الخضوع للنظام الموحد والسلوك الموحد .
وعوامل التشكك والإفساد هذه لعبت دورها منذ آلاف السنين . ولولا
قدرة المصريين المدهشة على استيعاب الغزو الخارجي بمختلف أشكاله .
وصوره . وعلى تمثله . لما احتفظ المجتمع المصري بشخصيته القومية .
المميزة . العميقة الجذور .

هذا التفتح يجعل المصريين يميّزون أكثر من الصينيين إلى
الفردية وإلى إخضاع المسائل للمقاييس العقلانية . ففي مصر كل شيء
يناقش . وكل شيء يشك فيه . وكل شيء يخضع لتقدير الفرد . وكل هذه
الصفات تدل على التقدم . ولكنها في الوقت نفسه عندما تتعدى حدودها
تجعل النظام . والتحرك الجماعي . أمراً أكثر صعوبة .

التعقيم بعد الطفل الثالث !

دفعت الحساب وخرجت إلى المرثم إلى الشارع وركبت الأتوبيس .
اكتشفت أن الكمساري يعرف مقر تنظيم الأسرة . سألته إن كان يمارس
أى نوع من أنواع التحكم في الإنجاب فأجاب بأن زوجته أجرت عملية
تعقيم بعد طفلها الثالث بالاتفاق معه . ودعني بإتسامة صينية فلوحت له
بيدي من على رصيف الشارع .

كنت على موعد مع رئيس جهاز تنظيم الأسرة . ولكن عندما
دخلت الحجرة وجدت أربعة أشخاص في انتظارى . رئيس الجهاز نفسه .
رجل صيني الملامح تبدو عليه الجدية إلى درجة الصرامة . وتوحي إليك
نظراته المباشرة الثابتة بأنه يفحص الشخص الجالس أمامه . ويحاول أن
يضعه في ميزان دقيق . والمسئول عن الإعلام اسمه الأول من أصل
إنجليزي واسمه الثاني من أصل ألماني تشعر في طريقة كلامه وفي
تصرفاته أن نموذجها في الحياة هو رجل الأعمال العصري . وسيدتان إحداهما



سننافةورة : شرطي المرور يحرس أطفال المدارس

تتولى الإشراف على الخدمات الطبية المتعددة بتنظيم الأسرة والأخرى مدبرة إدارة التدريب . ولم تكن هذه أول مرة ذهب فيها نقابة أحد المسؤولين . فأجد في انتظاري ثلاثة أو أربعة أشخاص . فتمت حدث هذا عندياً من المرات ليس في هذه الرحلة فحسب . ولكن أيضاً عندما زرت الولايات المتحدة الأمريكية في صيف ١٩٧١ . إنه أحد مظاهر الأسلوب الجماعي ومحاولة لكي يستفيد المسؤولين الأسمايين من الاتصال بالزائر الأجنبي . ومن المناقشة معه : واعتراف بأن أى مشروع أو عمل هو حصيلة مجهود عدة قطاعات لا يستطيع شخص بمفرده أن يلم بجميع جوانبه . وهي أيضاً محاولة لتربية قيادات جديدة : وفتح مجالات الخبرة والمعرفة أمامها . ومثل هذه المقابلات الجماعية تضيف حيوية ودفناً على الجلسة ، وتجعلك تشعر أنك خرجت منها بتمتار أوفر من المعلومات لمختلف فواحي الموضوع الذى أتيت لدراسته .

تناولنا القهوة بالابن وأشعلت سيجارتي . لم يكن أحد منهم يدخن .
قالتوا لى :

« الطيب ينبغي أن يضرب به المثل ، . أحسست بشيء من الخجل لزاء ضعفتى سرعان ما ذاب فى دفء الابتسامه . جالسنا حول مائدة الاجتماعات وبدأت الماقشة .

« لماذا تهتمون بتنظيم الأسرة وأنتم عبارة عن مدينة عدد سكانها خمسة ملايين ومن أكبر المراكز التجارية فى العالم ؟ »

« لأن لدينا قطاعات فقيرة تواجه الصعوبات فى رعاية عدد كبير من الأطفال وتربيتهم ، كما أن الثمات المتوسطة فى المجتمع تريد أن تحقق مستوى أرقى لحياتها وحيات أطفالها . »

« ولكن بلدكم غنى ومستوى المعيشة فيه مرتفع ، وهناك فئات واسعة

تحصل على دخول خيالية بالنسبة إلينا ، كما أن هناك أصحاب ثروات ضائعة ؟

هذا صحيح . ولكن أغلب المكاسب تذهب لشركات الأجنبية ، وتوجد فئات فقيرة ، كما قلت مثل الخرفيز ، وشجار نصغار ، والعمال .

إذن المشكلة أساساً هو كيف يمكن الاحتفاظ لأنفسكم بأموال التي تدخل إليكم وأن توزع بطريقة أفضل .

ساد الضمت قليلاً وأحسست بنوع من الخرج في وجوههم ، ثم قالت إحدى الطبيبتين :

« نحن أعضاء ولنا سياسيين . »

« هذا صحيح . ولكننا جميعاً مواطنون في بلادنا . »

قال مسئول الجهاز :

« المسألة ليست سهلة . فنحن مركز للتجارة العالمية ، والاحتكارات تسيطر على هذه التجارة . التغيير يحتاج إلى وقت ، وإلى تطور كبير في أوضاع البلاد الآسيوية . وفي الفترة الأخيرة حدث كساد في الحركة التجارية وأصبحنا نعاني من الأوضاع الاقتصادية ومن البطالة . »

« وماذا تفعلون ؟ »

« لا بد من التصنيع . وقد بدأنا فعلاً في إقامة صناعة وطنية . ونحن ندرك الآن أن تنظيم الأسرة ليس بديلاً للتنمية . ولكنه يمكن أن يكون عنصراً مساعداً ومهماً في البلاد التي تعاني من الانفجار السكاني . . . بلادكم مثلاً . »

« هذا صحيح . ولكن أظن أن المشكلة عندكم لم تصل إلى مستوى الانفجار السكاني . »

« إنها لم تصل ، ولكننا نعتبر أنها تتعلق برفاهية الأسرة وصحتها . ونحن

نهتم كثيراً بصحة الأسرة . والآباء . والأطفال . فالأطفال هم ذخيرة المستقبل .

« ومشروع تنظيم الأسرة كيف يعمل عندكم ؟ »
 « خدمات رعاية الأمومة والطفولة متوافرة لكل السكان . وهي على مستوى عال . وجميع النساء يستفيدون من هذه الرعاية قبل وبعد الولادة . والأغلبية الساحقة يضمن أطفالهن في المستشفيات . ونحن نستفيد من هذه الخدمات لنبت فكرة تنظيم الأسرة في أثناء تردهن على العيادات . أو عندما يتمن في المستشفيات عند الوضع . والوسائل المستخدمة متنوعة . الحبوب . والموالب . والتعقيم . عن طريق عملية جراحية تجرى على قناة المبيض . »

« وما موقف الرجال عندكم ؟ »
 « إنهم يتجاوبون في أغلب الأحيان . وعدد منهم يطلب التعقيم لنفسه بعد الطفل الثاني أو الثالث وفجريتها في العيادات الخارجية . فهي عملية سطحية لا تستغرق أكثر من عشر دقائق . »

« ألا توجد صعوبة في إقناع الناس بتنظيم الأسرة ؟ »
 « في المراحل الأولى لم يكن الأمر سهلاً وكانت هناك مقاومة للفكرة . ولكن الآن الشباب المتزوج يقبل عليها بسهولة . فهم يريدون أن يستمتعوا بحياتهم . وأن يخففوا عن أنفسهم أعباء الحياة . »

ولكن الصعوبة في الذين تزيد سنهم على ٣٥ سنة . إنهم ما زالوا متأثرين بالنظرة القديمة للحياة . بنوع من التواكل . وعدم القدرة على إدراك التغيير الذي حدث . وهذه السمات نسميها « بالقناة الصلبة »

استمرت المناقشة تدور حول المائدة ساعتين كاملتين . شعرت بحركة انصراف في المكاتب فهم يحترمون ، واعيذ العشاء والراحة . قمت واستأذنت . نزلت درجات السلم الالامعة من فرط النظافة إلى الشارع . قابلتني لفتحة الحرارة خارج المبنى . كانت السيارة البيضاء « تويوتا » تنتظرنى . لتحملني

إلى أحد مراكز رعاية الأمومة والطفولة . ثم إلى مستشفى مخصوص
للمولادة .

كانت الساعة تقرب من الخامسة عندما توقفت سيارة أماء تفندق .
صعدت إلى حجرتي . سحبت أحد المقاعد وأخذت أضل من الأضواء
العريضة على غابات الأشجار تتخللها البيوت البيضاء ذات الأسطح
المثلثة المغطاة بالبلاط الأحمر . تذكرت منظرأ رأيت في العيادة التي
زرتها . رجل أسمر نحيل تبدو عليه سماء الموضف . وإن جواره زوجته
فتاه جميلة يتميز وجهها بتلك التقاضيع الآسيوية المدققة التي تقاهاك
في كل مكان .

سألته الطيبية :

« ما مهنتك ؟ »

قال :

« سجان » .

نظرت إليه باهتمام زائد فلم أكن أتوقع أن أقابل سجاناً في أثناء رحلتي .
« ولماذا أتيتي ؟ »

« زوجتي تريد أن تجري عملية تعقيم » .

لاحظت أنه هو الذي يتكلم .

توجهت الطيبية إلى الزوجة بعينها . فقالت :

« أنا موافقة على هذا . ومستعدة للإمضاء » .

« ولماذا تريد إجراء هذه العملية » .

قال الزوج :

« عمري الآن ٤٢ سنة . ولدي ثلاثة أطفال . مرتبي لن يزيد كثيراً .

والحياة تبعاتها كثيرة . أريد أن أعطي أولادي الثلاثة أحسن الفرص .

ثم لا داعي لأن أتحمل عبئاً جديداً في هذه السن وأن أكبر قبل أن

أنهى من تربية أولادي » .

انتقلت الطيبة إلى الزوجة مرة أخرى وقالت :

« وأنت ؟ »

« أوافق على هذا الكلام . أنا لا أعمل ومع ذلك فأعباء المنزل كثيرة ، ولم يعد من الممكن الحصول على شغالة . وليس من السهل أن نتكفل بطفل آخر » .

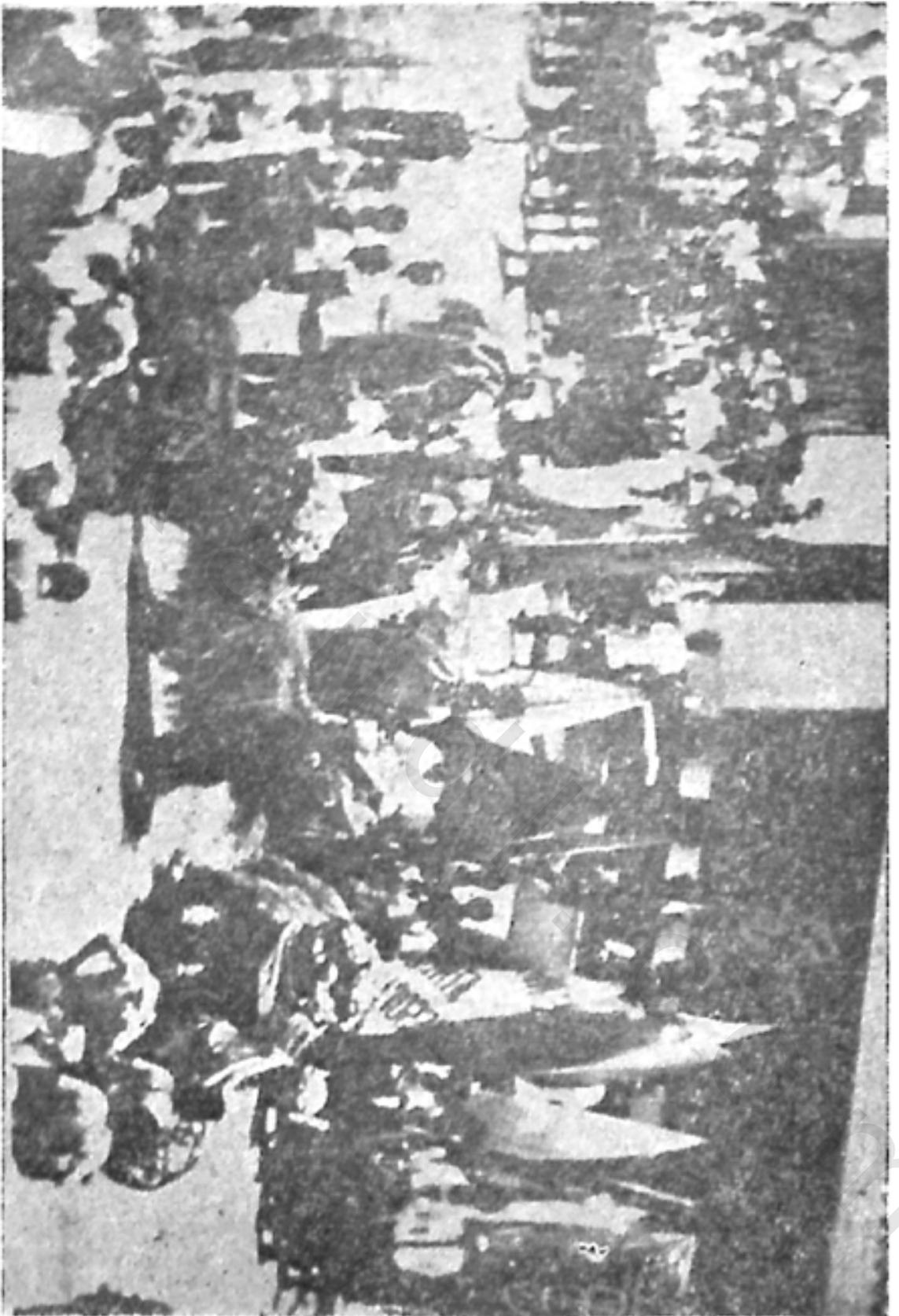
أدركت أنني أشاهد تطوراً من تطورات العصر . كل شيء يخضع بالتدرج للتكبير ، كل شيء لا ينبغي أن يخضع لتمصادفة العمياء ، حتى ولادة الطفل . فالطفل إنسان ، والإنسان مسئولية .

سنغافورة بدون مساحيق !

السفر يولد عندي نوعاً من القلق . فأنت تشعر أن الزمن محدود ، وأنه ما زالت هناك أشياء كثيرة لم ترها . ولذلك أندحش دائماً من رفاهي في السفر الذين يصعدون إلى حجراتهم ، ينامون ملء جفونهم ساعتين أو ثلاثاً ويرتدون ملابسهم على مهل ، ويتناولون طعامهم في المواعيد المقررة ، فيضيعون في هذه العمليات الروتينية نصف أيامهم .

الحجرة في أثناء السفر تبدو لي كالترنزة ، لا أطيع البقاء فيها ، إلا عند ساعة متأخرة من الليل عندما يفرض الإرهاق ضرورة الإيواء إلى الفراش ، أو في فترات قصيرة يتطلبها تغيير الملابس والحلاقة والاستحمام ولحظات من الراحة . أما بقية الوقت فأفضيه في التنقل المستمر من مكان إلى مكان ، أتناول طعامي في المقاهي والمطاعم التي أصادفها في أثناء التجول وأحياناً على قارعة الطريق ، أمام الأكشاك الخشبية ، أو من الباعة المتجولين ، آكل مما يأكل الناس ، وأراقب حياتهم وعاداتهم ، وأقف في الزحام بينهم .

وفي كل مدينة عندما تسأل الاستعلامات في الفندق ، أو الأشخاص الذين تصادفهم في أثناء العمل عن مكان تبتاع منه شيئاً تريده ، أو



سنغافورة : رقصة الأسد في الشارع

تقضي فيه بعض الوقت بعد عشاء اليوم . تجدهم يدلونك على الأحياء الراقية حيث الفنادق الفاخرة . وبيوت الملبس . والمخيلات التي تباع أعلى الأصناف . وعندنا يحدثني أحد عن هذه الأحياء أهر رأسي استحسناتاً وأستوثق من طريقة الوصول إليها . ثم أخرج إلى الشارع وقد صممت على أن أضع بيني وبينها أطول مسافة ممكنة . باستثناء المتاحف . والآثار . والأعمال الفنية . والمكتبات . فهذه الأحياء في أغلب عواصم العالم تشابه . اللغة قد تختلف . والوجود قد يختلف . ولكن البذخ المثير للاشمئزاز واحد . والرجال الذين يتزاحمون عليها من النوع نفسه . تجدهم في كل عواصم العالم . يلبسون آخر طراز . ويتعطرون على آخر طراز . ويفضحون ويتكلمون ويرقصون على آخر طراز . ويضاربون في بورصة المال والفننة على آخر طراز . ويستنشقون الهواء الفاسد في الحجر المغلفة . هنا كل شيء مصطنع مزيف ما عدا الجواهر .

فإذا كنت تبحث عن أشياء حقيقية أصيلة . عن نسيم منعش يكسر التتابع المرهق للأيام والليالي الحارة الرطبة . عن دفء الناس العاديين وانطلاقتهم . عن سناغفورة بدون مساحيق وأصبغ . فاتجه إلى الجنوب . إلى الميناء . الشمس تسقط خلف السحاب عند خط الأفق تغسل الكون بألوانها الوردية . والمباني البيضاء . وقمم الأشجار . ومياه البحر الممتدة في الميناء . ورذاذ النافورات تتمايل خطوطه وتلعب مع الألوان . والطريق الدائري مزدحم بالسيارات المسرعة . يشعرك برغبة في الهروب من الضجيج . لتلتق بنفسك في أحضان الهدوء .

عند أول الكوبرى المعلق في الفراغ تفاجأ بدرجات عريضة . وتيار من الناس يهبطون عليها كأنهم يسرون نحو هدف واحد . وعند أسفل الدرجات طريق واسع مصنوع من الحصى الملونة . وعلى يمين الطريق يتحول البحر بالتدريج إلى لون بنفسجي . الظلام يزحف فوق سماء المدينة . وعلى سطح المياه أضواء السفن تتلألأ كالنجوم التي تولد مع الليل .

تتضع فيها العمودان الخشريان منسرة مغروسة في رأس النخلة الأخضر منحوت
على شكل تين .

وعلى يمين الطريق التي تمتد مسافة كبيرة ونصف سور من الحجر
متين . ومصايبح بيضاء ، وصف طويل من المقاعد . وعلى يسار حديقة
واسعة كالمسطح الأخضر تتخذ الأشجار . وأحواض الزهور وناظورات
المياه . ومقاعد خشبية تحس أنها وزعت بعد تدبير .

وناس يجلسون في هدوء يتطلعون إلى البحر . أو يسرون بخطوات
متمهلة فوق الطريق . أو عبر مساحات الحديقة تحت الأشجار .

كل الأعمار موجودة . مئات الشباب يتحدثون ويضحكون بدون
خسبيج . والعشاق يتهامون عند السور ويطلون من فوقه إلى الأفق البعيد .
كأنهم يحاولون استقراء المستقبل . أو يتهامون فوق المقاعد وقد كادت
رءوسهم تلتصق . والأطفال يمرحون هنا وهناك . أو يتناجون بالونات
المستعينة من الفتاة الصغيرة التي افترشت الأرض عند المدخل . وإذا
تبعمهم في ذوهم ولعبهم تكتشف الشيء الغريب في الأطفال الآسيويين ،
ذوعاً من الحدية . بل من انقار ، فلا شجار . ولا ضجيج . ولا صياح .
والكبار يوجهونهم دائماً برفق . لا ضرب . ولا عنف . ولا صراخ .
ولا شيء من العصبية . علاقة مريحة تحب أن تراها وأن تنفرج عليها .

والأطفال هنا يفتنون النظر وبخاصة إذا لم تكن قد رأيتهم من قبل .
فكل شيء فيهم بالغ الصغر . أبدانهم . وعيونهم . وأيديهم . وسيقاتهم ،
يشبهون العروس المصنوعة من المطاط . فتفاجأ بهم يتحركون فوق سطح
الأرض مثل « عقلة الأصبع » وعلى وجوههم سماء الجلد والرزازة . فالطفل
الآسيوي مثل الرجل الآسيوي لا تظهر انفعالاته في وجهه .

عند آخر الطريق وجدت ميداناً واسعاً في شكل مساحة مستديرة .
على الحافة الخارجية للدائرة انتظمت أكشاك مستطيلة من الخشب
مطية بطلاء أبيض يلمع في ضوء المصايبح . وفوق مساحات الدائرة

كلها وضعت الموائد والمقاعد الخشبية المثبتة في الأرض . كان الميدان مزدحما بالناس يجلسون حول الموائد .

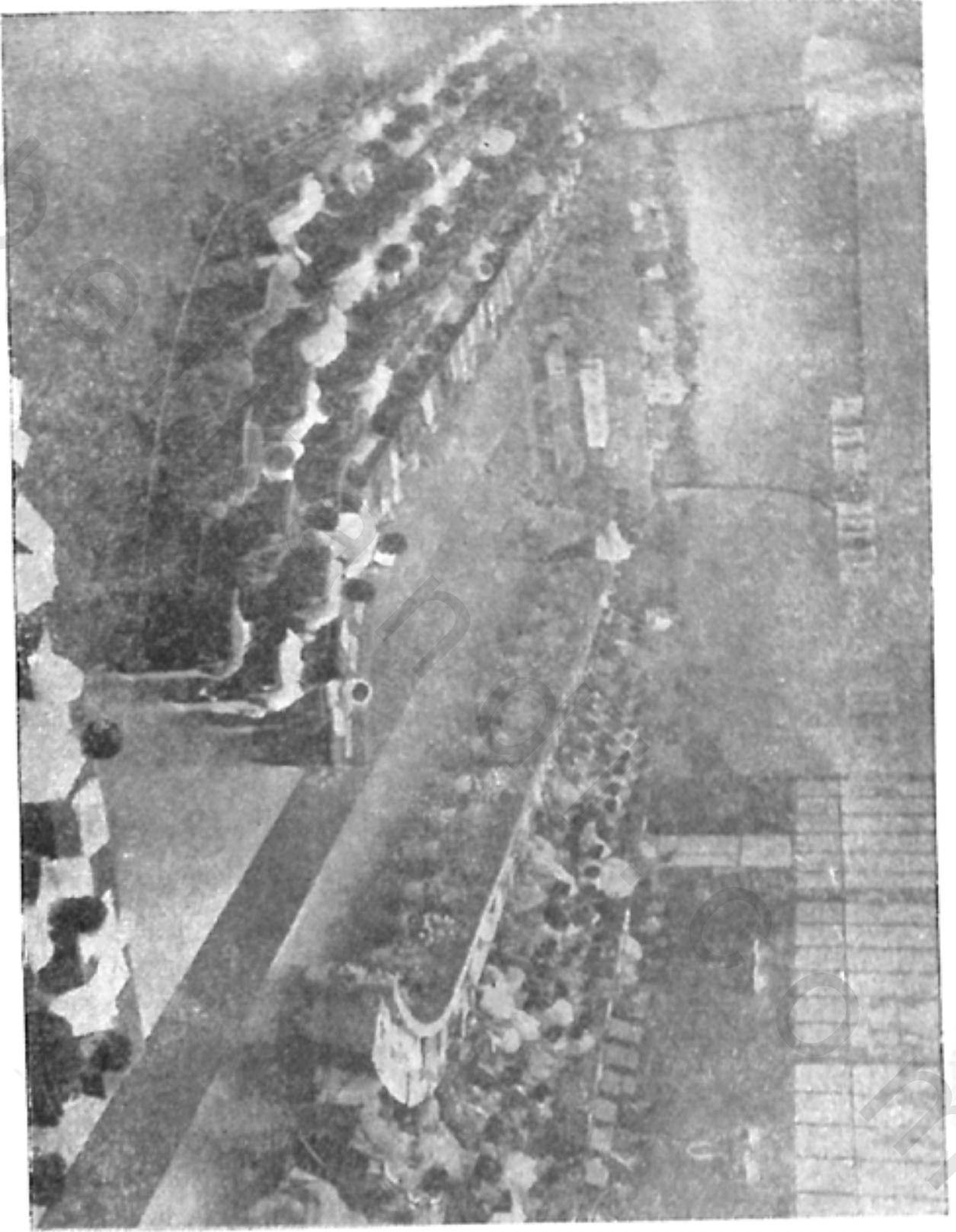
سرت ببطء أتطلع إلى واجهة المحلات . على جدرانها رسوم ملونة تمثل الأطعمة التي تباع . وكل محل مختص بنوع معين . فهنا عصير الفواكه والمثلجات وأنواع من الأيسكريم . وهنا القهوة والشاي والساندوتشات والفتائر والكعك . وهنا الخضراوات والأرز والأطباق المطبوخة . وهنا أنواع السمك والخضراوات المائية والتمور . وهنا البيض والطيور . وهنا اللحوم المشوية والخميرة .

أحسست بالجوع ينقض على فجأة . جلست على أحد المقاعد عند الطرف الخارجي . برغم الزحام لم يزد صوت المتجمعين على شيء يشبه المهمة المأدبة . هناك تجلس أسرة بأكملها : الأطفال يغرسون ملاعقهم القصيرة في تل من الأيسكريم الآسيوي وضع أمامهم . والكبار يشربون عصير الفواكه ويتطلعون إليهم بعيون هادئة . على المائدة الملاصقة لي رجالان يختصيان الشاي برشقات لا تسمع . ويتحدثان بكلمات لا تسمع . الجو فيه شيء كالسحر . الشجرة العالية ترتعش في الضوء الأبيض وسحابة ثقيلة تجتاز السماء تنبعث منها بقايا الألوان الذهبية والوردية التي نطلقتها الشمس بعد غروبها . على يمينها مساحة صافية من السماء كالنافذة الزرقاء . الأيدي والابتسامات تلتقي عبر الموائد الخشبية . والفتيات يتحركن هنا وهناك وسط الزحام يحملن المشروبات . والأطعمة . بتلك المشية اللينة السريعة التي تحس فيها بالقدرة على الجهد المتقن . وعلى بعد بضعة أمتار بحيرة صغيرة تحيط بها أزهار مائية أغلقت جفونها . وفنارة هندية لفت قوامها الفارع « بسار » أزرق طويل تتطلع إلى البحيرة في صمت . ورجل يجلس على الجانب الآخر يتابع حركة الناس في هدوء .

مرت ساعة والناس يروحون ويخيمون . والرجل ما زال بجوار البحيرة . والفتاة الهندية ما زالت مستغرقة في المياه الساكنة . وأنا جالس في مكاني

لا أريد أن أغادره . كائنني أصبحت جزءاً من الطبيعة . من تيارها
الغني . من سرورها . لم أعد أشعر بأخاجة إلى الكلام أو الحركة أو التفكير .
يكتفي هذا الإحساس بالذوبان في اللحظة . هذه الوحدة مع الكون .
هل كان لا بد من أن أجتاز كل هذه المسافة حتى أجدتها ؟

تلفت إلى البحيرة . فوجدت بها ساكنة موحشة . هكذا في منح
البصر . بحثت عن الرجل فلم أجده . بحثت عن الغنائة فلم أجدها .
كأن سحراً ما يربط بيتنا نحن الثلاثة . أحسست باللمحة تتلاشى
وبالحلقة تنكسر . وضعت النجوم على المائدة وغادرت المكان .



ماليزيا : قاعة المؤتمر ، صالة تنسكو عبد الرحمن